تطور مفاهيم المعاملات التجارية في الفقه الإسلامي

مخطوط حاشية ابن عبد الرحمن التلمساني على الخرشي

(جزء البيوع) نموذجا

أ. كبير يحيى *

يمثل فقه البيوع ومتعلقاته من أهم قضايا المعاملات الإقتصادية والتجارية، فاهتم به الفقهاء باعتباره قضية فقهية تتعلق بالمعاملات وتنظيم الشؤون الإجتماعية، ومنذ بداية الإهتمام بهذا الفرع العلمي الذي ينظم حياة الناس، ويضبط حدودها كما يقنن للحقوق والواجبات على المكلفين من المسلمين، من أجل حفظ الحقوق العامة والملكيات الفردية ، ورعاية ثم ضمان حسن سير شؤون الرعية. ظهرت أعمال تحاول ضبط حدود هذا العلم والإمساك بالقوانين المسيرة له، فقد توالت الكتابات والإجتهادات حول الموضوع تباعا – وإن لم تكن مستقلة بشكل كامل– آخذة التطورات الإجتماعية والقضايا المستجدة بعين الإعتبار، ثم البحث والتدقيق.

---

* أستاذ مساعد بجامعة مولاي الطاهر سعيدة.

ومنذ أن كتب سحنون مدونته الفقهية في المذهب المالكي خاصة، تتابعت الكتابات حول القضايا الفقهية المختلفة – ومن بينها فقه البيوع والمعاملات – حتى جاء ابن الحاجب ووضع كتابه جامع الأمهات".. منها مختصره الفرعي اعتنى العلماء بشرحه شرقا وغربا.." [1] فتبعه في ذلك العلامة خليل ابن اسحاق[2] في المختصر على المدونات الفقهية السابقة عليه،مثل المدونة والرسالة . وهي جملة الكتب التي اشتهرت دون غيرها ثم توالت الشروح على خليل كونه اعترف في كتابه أنه لم يحل كل ألغاز هذا العلم .وأهم الشروح التي اشتهرت وبان فضلها وسهولتها شرح أبي عبد الله الخرشي[3].

ونظرا لما صار يمثل من أهمية ظهرت عليه حواشي ومنها حاشية سليمان العلوي المغربي وحواشي الجزائريين أمثال أبو طالب المازوني ومحمد بن عبد الرحمن التلمساني — موضوع بحثنا– وتلميذه أبي راس الناصري من بعده وغيرهم كثير.

ولعل لاهتمام علماء المغرب العربي بالخرشي والزرقاني في الفقه المالكي، دور في تطور الاجتهاد في المذهب المالكي خاصة، بعدما صار مجال فقه البيوع مستقلا عن فقه معاملات النكاح وقد–كانا بابا واحدا –وحدث هذا مع بداية القرن الثاني عشر.

وتأسيسا عليه يأتي اهتمامنا بدراسة هذه الحاشية وجزء البيوع على وجه الخصوص، وقد أولاها المؤلف إهتماما بالغا، وباعتبارها جهد يراكم على جهود سابقيه، ويحاول أن يؤسس شبكة مفاهيم تطورت مع الزمن، وقد فرضتها التغيرات الحاصلة في المجتمع.

ترجمة المؤلف:

هو محمد بن عبد الرحمن بن محمدبن محمد بن الحاج التلمساني علم تلمسان وعالمها ذكره عادل نويهض في معجمه " محمد (فتحا) بن عبد الرحمن التلمساني من كبار فقهاء تلمسان وعلمائها، ةوبها نشا وتعلم، رحل إلى المشرق وأخذ عن جماعة وعاد إلى تلمسان فولي قضاءها.ثم رحل إلى المشرق مرة ثانية"[4].

الإمام العلامة شيخ أبي راس الناصري المعسكري وقد أفرد له ترجمة لما ذكر شيوخه في كتابه فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، فقال: "ومنهم العارف الرباني، والهيكل الصمداني- من نسل عالم المذاهب الأربعة، أحمد بن الحاج المانوي [5] - علم تلمسان وعالمها، وعاملها وقاضي الجماعة بها،شيخ الإسلام،الحبر الهمام، الزكي الإمام، بحر متلاطم الأمواج، منهل يعذب بقاع الفجاج. جمع متفرقات العلوم، ومجهولها عنده كالمعلوم، وذو عفة وصيانة،ونزاهة وديانة.

ولادته ونشأته: ولد في تلمسان ونشأ بها ثم رحل إلى مصر لطلب العلم بالأزهر الشريف، ثم عاد إلى تلمسان وتولى قضاءها، ثم تركها مكرهاومرغما، وعاد إلى المشرق"... ولما عزل عن القضاء والمناصب التي تحمد وترتضى، سمت له همته، ونمت به رفعته إلى الرحلة إلى المشرق ثانيا، غير متكاسل ولا متوانيا، ونبذ تلمسان نبذا كليا،... فودعها وداع من لا يعود، فأعرض عن العشائر والأقارب والأهل وأضرحة الجدود... ولحق بالحرمين الشريفين..." [6].

شيوخه :

قال الناصري : "...قد رحل إلى مصرفي طلب العلم الظاهر، وباطنه المتظاهر، فأخذ عمن يعيد ويبدي،كالشيخ السمان[7]ومحمود الكردي[8]،وغيرهما ممن له تفصيل ومجاملة، بعلمي المكاشفة والمعاملة، حتى فتح مختومها، واتقن معلومها، وأوضح أشكالها، وحل أقفالها، فهو وحيد الأوان، وعلامة الزمان. ما قرن به عالم إلا رجحه، ولا ألقي إليه مبهم إلا وضحه.عدل في احكامه، مراقب إلى الله تعالى في فعله وكلامه، بحق الله قائم، لا تاخذه فيه لومة لائم، له نزاهة عن الدنيا، وهمة نيطت بالثريا، سمعت في درسه فوائد و أهدى لتلامذته موائد، لاسيما علم المعقول،فما لأحد فيه حصول. ألحق عوام تلمسان بالفقهاء، وسفهائهم بالنزهاء ورحمه الله! وبرعايته تولاه.." [9]

مؤلفاته:

ترك المؤلف كتب المعروف منها اثنان ذكرهما عادل نويهض؛ وقال "... من آثاره حاشية على صغرى السنوسي [10]،وياقوتة الحواشي في حل ألفاظ الخراشي وهو الشرح الكبير على متن خليل في فقه المالكية لأبي عبد الله الخرشي المتوفي سنة 1101 وهو أول من تولى مشيخة الأزهر.."[11].

وفاته:

إن كنا لانعرف تاريخ ميلاده، فلا نعرف تاريخ وفاته بالتحديد ، لكن من تاريخ وفاة شيوخه وحياة تلامذته نعرف أنه ولد وتوفي خلال الثاني عشر بين 1100 و1200 تقريبا فقد تتلمذ عليه الناصري وهو مولود في 1150.أما الشيخ السمان وهو أحد شيوخه فقد توفي سنة 1192 [12].

صحة نسبة المخطوط للمؤلف:

ممن نسب للمؤلف هذه الحاشية الشيخ مرتضى الزبيدي[13]في بحر الأنساب [14] وعادل نويهض في معجمه وسماها:ياقوتة الحواشي في حل ألفاظ الخراشي[15]. وتختلف مع حاشية أخرى على نفس الكتاب وقد كتبها جزائري معاصر له أيضا وهي لمحمد بن علي بن أبي طالب المازوني المدعو الشارف، عنوانها درة الحواشي على شرح الخراشي[16].كما أنها كانت تدرس في المغرب حيث يقول الحفناوي في تعريف الخلف بأن الشيخ المجاوي كانت يدرسها لطلبة العلم.وقد نقل عن أحد تلامذته (العلامة أحمد بن حسون) أنه قرأها عليه في فاس [17] .

التعريف بالمخطوط:

ياقوتة الحواشي على شرح الإمام الخراشي: تأليف محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن الحاج اليبدري التلمساني. في ثلاث أجزاء منها الأول والثالث في مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية الدار البيضاء المغرب تحت رقم 519و659 على التوالي.

وتوجد نسخة أخرى في معهد المخطوطات بجامعة الرياض في السعودية وعنها صورة في مكتبة جامعة الملك سعود رقم 5072 وهي النسخ المأخوذة عن نسخة بالخزانة العامة بالرباط (276/1) . وهي النسخة التي بين أيدينا. عدد صفحاتها224 ورقة في كل ورقة صفحتين من المخطوط.

وصف النسخة:

جزء البيوع من الياقوتة في الفقه المالكي ويقع في بداية الجزء الثالث يمثل (36 ورقة) من الحاشية وأوصافها :

- حاشية على شرح الخرشي.
- الناسخ عبد الرحمن بن محمد .سنة النسخ: 1174
- 224 ورقة في مجلد (الجزء الثالث)
- نسخة جيدة ، بخط مغربي مقاس (21.5سم- 31.5 سم)

أهمية المخطوط.

يشكل المخطوط أهمية كبيرة في مجال الفقه الاسلامي عامة، وفي ميدان المعاملات الاقتصادية خاصة ومنها البيوع والرهن والايجار،وما يتصل بها من تفاصيل وجزئيات فرعية. وتأتي أهميته من:

1- التطورات والاجتهادات التي واكبت هذا الصنف من المعاملات في الفقه الاسلامي والتي تولدت عن تطور الحياة وتعقد بعض تفاصيلها .حتى ذهب

العلماء من شراح المختصر والمعلقين عليه إلى فصل جزء البيوع عن قضايا النكاح حيث كانا ملتصقين في المختصر (الأصلي).

2- أنها تأخذ بعين الاعتبار كل ما كتب حول الموضوع حيث جاءت الحاشية حافلة بالفتاوى والاجتهادات المتعلقة بالموضوع وكل ما كتب حوله ،وعبر كل فترات التاريخ الاسلامي حتى عصر المؤلف.

3- وتتجلى أهمية الموضوع والمخطوط وقضاياه إلى درجة تحوّله إلى قضية خاصة بالغة الأهمية حيث غدا الفقهاء يخصصون لها كتابا خاصا ،لعل في الشيخ أبي حامد العربي بن أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله التاودي بن سودة المري أحسن مثال فمن مؤلفاته".وحاشية على شرح الخرشي من البيوع إلى الإجارة [18] .

4- إحصاء المصطلحات وضبطها، وهو مايشكل إضافة لعلم المصطلح من جهة، وتطوير مصطلحات المعاملات التجارية والإقتصادية والنفعية، بما يواكب التطورات الحاصلة في مختلف جوانب هذا العلم.

5- تسجيل كل شاردة وواردة فيما يخص نوازل وقضايا المعاملات الإقتصادية ومنها الخاصة والطارئة في هذا الباب الفقهي المتعلق بحياة الناس اليومية. وهو ما يشكل مراكمة علمية تستحق كل عناية، ويبنى عليها عبر الأجيال.

- يمثل المخطوط درجة عالية في مجال الإنتاج العلمي المحلي فهو مغاربي المصادر جزائري الطابع ،يأخذ بالحسبان الإسقاطات الميدانية المحلية التي تختلف عن غيرها من المناطق الأخرى.

مصادر المؤلف في حاشيته على الخرشي:

يعتمد المؤلف على عدة مصادر أكثرها مغاربية وأغلبها معاصر وقريب من عصر المؤلف. كما لايغفل القديمة والأصلية، فهو ينقل فتاوى ورسائل ومنظومات في مجال فقه البيوع ومعاملاته المختلفة. وكثيرا ما يحيل إلى مصادرها، فمن أمثلة ذلك :

– وفي كلام بعض فقهاء الوقت كما نقل عن ابن شاس كما في تبصرة ابن فرحون[19] والسوداني [20] على مختصر خليل(ورقة 3من المخطوط)

–حاشية الشيخ حلولو[21] على مختصر الشيخ خليل(ورقة3 من المخطوط).

– عن العباسي [22] ومثله في المعيار[23] (ورقة3 من المخطوط) .

– ومثله للشيخ العقباني[24] والباجي (ورقة3 من المخطوط).

محتوى المخطوط(جزء البيوع) :

1– وصف المحتوى

– محتويات المخطوط تنقسم الى متن أصلي يشمل الشرح(الخرشي) والتعليقات الخاصة بالمؤلف ،وهي عبارة عن شرح مصطلحات او زيادة توضيح ما ظن المؤلف أنه صعب الفهم.

– كما يشمل المخطوط في حواشيه بعض القضايا الفرعية المتعلقة بالموضوع.وهي عبارة عن مسائل وقضايا طرحت ونوقشت في كتب الفقه .أو مسائل واجهت المؤلف نفسه،فأجاب عنها.

– ويحتوي المخطوط مقتطفات من كتب علماء سابقين وفتاوى ناقشت موضوع البيوع ،إلا أن المؤلف يعلق عليها موافقا تارة، ومعارضا تارة أخرى. كما يورد ما أغفله سابقيه في الميدان.وهي زيادات هامة في مجال المعاملات وإشكالياتها المختلفة مما يطرأ عليها من تغيرات وقضايا فرعية تشكل عمود أساس في تطور البحث العلمي.

– يحتوي المخطوط أيضا منظومات أو مقاطع في فقه البيوع ،وهي قصائد توضع أصلا للحفظ وفهم الموضوع وتسهيله على طلبة العلم.

2– تفاصيل المحتوى

بداية المخطوط عبارة عن فهرس بالمواضيع الخاصة بجزء البيوع ويشمل مجموعة أبواب ومنها ما يحتوي فصول وهي.

* باب ينعقد البيع مما يدل على الرضا

– فصل علة طعام الربا اقتيات وادخار.

– فصل في بيوع الآجال.

– فصل ذكر فيه حكم بيع العينة.

– فصل إنما الخيار بشرط.

– فصل في المرابحة.

– فصل يتناول البناء والشجر والأرض.

– فصل إن اختلف المتبايعان في جنس الثمر.

* باب السلم.

- فصل فس الغرض.

- فصل في المقاصة.

* باب في الرهن.
* باب في الفلس.
* باب في بيان أسباب الحجر.
* باب في الصلح.
* باب في الحوالة.
* باب في الضمان.
* باب في الشركة.

- فصل في المزارعة.

* باب صحة الوكالة.
* باب في الإقرار.

- فصل في الإستلحاق.

* باب في الإيداع.
* باب في حكم العارية.
* باب في الغصب.

- فصل واد زرع فاستحقته.

* باب في الشفعة.
* باب في القسمة.

* باب في القراض.

* باب في المسافات.

ويحتوي كل باب أو فصل المتن الأصلي وتعليقات الخرشي ،وشرح على الشرح وهو أصل الحاشية.كما يحتوي المخطوط مادة علمية متنوعة ومتفاوتة الأهمية في باب المعاملات التجارية:

– تعاريف علمية مضبوطة في بداية كل باب .

– ضبط للمعاني والمصطلحات وعرض أراء العلماء وشروحهم لها.كما يشمل تحديد لفروع كل تخصص أو قضية من كل باب من أبواب هذا العلم.

خلاصة :

طرأت على مجال فقه المعاملات تطورات مهمة والتي واكبت تطور وتعقد الحياة، وخاصة في قضايا المعاملات التجارية والاقتصادية بصفة عامة. الأمر الذي دفع العلماء والفقهاء إلى البحث وتطوير مجال المفاهيم وإيجاد الحلول المناسبة، بما يلائم التطورات الحاصلة. وقد حاول ابن عبد الرحمن التلمساني جمع شتات الموضوع وتطوير شبكة مفاهيم وفتاوى تلائم المواضيع المستعصية والمبهمة ،بشكل يقدم حلولا علمية ويخدم الصالح العام ،ويفتح آفاقا جديدة لما يستجد من قضايا في المستقبل.

الهوامش :

1. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،محمد بن محمد مخلوف.ص-167 ترجمة رقم 525 وابن الحاجب متوفي سنة646للهجرة .
2. هو ضياء الدين أبو المودة الجندي المتوفي سنة 782 .له شرح على مختصر ابن الحاجب ترجمت له كل كتب التراجم باستفاضة.
3. المتوفي سنة1101 للهجرة النبويةالشريفة.
4. معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض ص-78.
5. المتوفي قريبا من 930 هجرية انظر ترجمته في البستان،ص-9.وفي تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (ج2/ص 288). فتح الاله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته،أبي راس الناصري ،ص-56.
6. فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته،محمد أبي راس الناصري ،ص-56.
7. السمان المدني المتوفي سنة 1192 وهو شيخ التاودي بن سودة المري.
8. وهو محمود بن ابي زيد الكردي الازهري وشيخ ابي راس الناصري المعسكري.
9. فتح الاله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته،أبي راس الناصري ،ص-56.
10. محمد بن يوسف السنوسي صاحب العقائد والصغرى هي جوهرة التوحيد في عقيدة الاشعرية .توفي سنة 895هجرية،ترجمته في البستان.ص- وما -231.
11. معجم أعلام الجزائر،عادل نويهض. ص-78.
12. فهرس الفهارس ،عبد الحي الكتاني.(ج2/ص
13. الزبيدي عالم مصر المشهور صاحب تاج العروس في شرح القاموس ووكتب اخرى منها في الانساب وفهارس الحديث ،أخذ عنه الناصري ابي راس وعلماء جزائريون آخرون. وتوفي سنة1205.
14. بحر الأنساب ،تعليقات الزبيدي.ص-311.
15. معجم أعلام الجزائر،ص-79.

16. فهرس الفهارس،عبد الحي الكتاني.(ج1/ص507)
17. تعريف الخلف برجال السلف،أبي القاسم الحفناوي(ج2/ص295)
18. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،محمد بن محمد مخلوف.(ص377). اما الشيخ أبي حامد فقد توفي سنة1229.
19. المتوفي سنة 799 وله شرح على مختصر ابن الحاجب الفرعي ترجمته في شجرة النور،مرجع سابق (ص22).
20. صاحب ذيل الديباج وهو المنهاج المتوفي سنة 1032ترجمته في تعريف الخلف برجال السلف(ج1/ص14).
21. المتوفي سنة875 وله شرحان على المختصر .ترجمته في شجرة النور(ص-259)
22. أحمد بن محمد بن محمد العباسي السملالي الفقيه الأصولي، المتوفي سنة 1154.شجرة النور (ص289/ترجمة رقم 1120).
23. المعيار المعرب عن فتاوي افريقيا والمغرب ،للونشريسي أحمد بن يحي بن عبد الواحد المتوفي سنة 914 هجرية،وهو مطبوع متداول.
24. توفي الشيخ ابو الفضل قاسم العقباني سنة 845.له تعليق على ابن الحاجب الفرعي. شجرة النور مرجع سابق